أنماط التدليل في شعر السياب

قصيدة "في القرية الظلماء" أنموذجا

م . ميثم رشيد حميد

ملخص البحث :-

(يحاول هذا البحث أن يستكشف النظرية النحوية الدلالية عند العرب، ويركّز على الدلالة التركيبية، وطريقة تمييز النظرية العربية بين الاستدعاء التصوري، والدلالة التصديقية التركيبية. وعلى نحو تطبيقي يدرس البحث أثر هذه الدلالة في قصيدة السيّاب، ويعالج منها بعض المسائل، مثل المفهوم وصلته بالتمثيل، والقصد.)

التدليل في علم العلامات هو الأشياء التي تعمل داخل مجتمع ما بوصفها علامة[١]. وأما في علم الدلالة، فهو أكثر تشعباً لتضمنه عناصر التدليل الثلاثة وهي (الدال والمدلول والمرجع الخارجي). وقيل في اللسانيات: إنّ علاقة الدال بالمدلول، هي العلاقة الوحيدة التي تمتلك مداخل حقيقية في اللغة. يقول المسدّي "إذا كان تفاعل الدال والمدلول يفضي إلى إشكال لساني عام، فإن تفاعل الدال والمرجع، أي الحدث اللغوي الصرف مع الأشياء الخارجية، يفضي إلى فلسفة اللغة، وأما تفاعل المدلول والمرجع . أي المتصورات الذهنية المجردة مع حقائق الأشياء. فإنه يفضي رأساً إلى نظرية المعرفة"[٢].

أثّر هذا الاضطراب الحاصل في هذه العلاقات، على نحو مباشر في علم العلامات، يقول (أمبرتو إيكو): "يجب القول قبل كل شيء إن السيميائية المعاصرة تبدو مضطربة إذ تجد نفسها أمام البديل الآتي: هل مفهومها الأساسي هو العلامة أو توليد الدلالة؟"[٣]. وقد استقر البحث الدلالي في هذا الموضع على نوع العلاقة الذهنية الحاصلة بين كل عنصرين متقابلين. ومثلث ريتشاردز كان البنية الأساسية التي ظهرت بها هذه العلاقات. وقرئ على النحو الآتي:

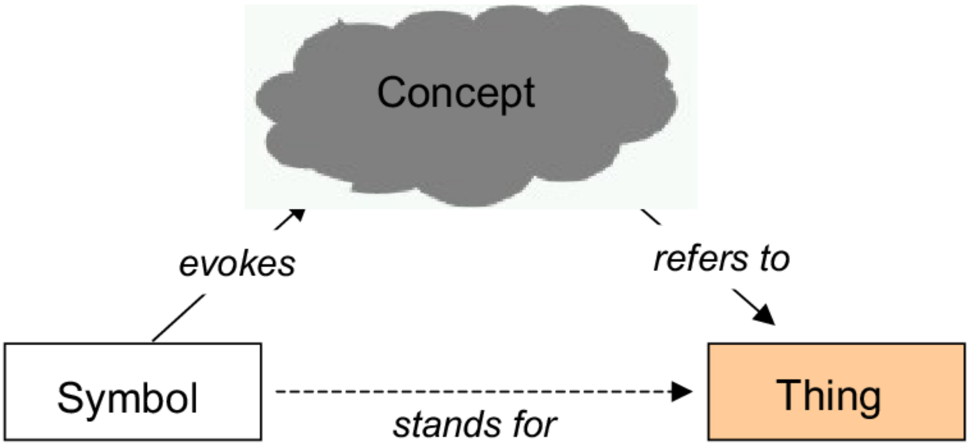

٤

حيث symbol هو (الرمز)، evokes (الاستدعاء)، concept المفهوم، refers to (إحالة)، stands for (تمثيل لـ ، أو ما يحل محل).[٥]

تمثل هذه العلاقات المسوّغ المعرفي للتوافق بين الرمز والشيء الخارجي، وهو لا يتم من دون نظرية معرفية قائمة هنا على التمثيل الذهني. وهذا يعني أن قاعدة التدليل مصدرها الأول هو التصور الذهني، ولكنه هنا محدد بعلاقة كما هو شأن الاستدعاء والإحالة، فيأتي التمثيل ثالثاً ليقر بالنظرة الاعتباطية بين الرمز والشيء الخارجي.

وأما في غياب العلاقة الداخلية بين عناصر التدليل التصوري في مثلث ريتشاردز، فيمكننا أن نحتكم إلى علاقة كلية مفادها: إن صلة الرمز بالشيء الخارجي لا تتم إلا من خلال المرور بالمفهوم. وهنا تبدو للعيان مشكلة رئيسة واحدة هي مشكلة تفسير المفهوم، فهل هو العقل الجمعي المتراكم، أو هو خلاصة العمليات الذهنية الناتجة من تجربة الإنسان الفردية؟. فمفهوم (كتاب) قد يؤلف مستوى من مستويات التجارب المشتركة غير المتراكمة، وهي جزء من عقل الشخص، ولكن مفهوم (الحرية) لا يمكن أن يُوجد إلا منفصلاً عن عقل الشخص، ويخضع لتراكمات، حتى يستقر على حالة معينة، تختلف من مورد إلى آخر.

من أجل ذلك كانت تجزئة العلاقات في ثلاث (استدعاء، وإحالة، وتمثيل) هي من باب سد العجز عن التوقف عند قمة الهرم، أي عند المفهوم. وحتى هذه العلاقات لم تمنح المفهوم كفاية تفسيرية في نهاية أو بداية العلاقة. فالاستدعاء يبدأ من اللفظ أو الرمز وينتهي عند المفهوم، من دون أن يضع نهاية محددة للعلاقة عنده. فيكون الاستدعاء أبسط مظهر للتصور. وأما الإحالة، فهي تبدأ من المفهوم، وتبقيه معلّقاً حتى يتعرف بشيء

خارجي، فهو ابتداءً وحدة دلالية فارغة تملأ بالمتعينات الخارجية. وأما علاقة التمثيل فهي خالية من المفهوم بسبب النقل الاعتباطي بين الرمز والشيء الخارجي.

إن المثال المضروب على مستوى العالم، في العجز عن التوقف عند (المفهوم) في العلاقات الدلالية، هو مثال (فريجة) الذي ضربه في (نجمة الصباح) و (نجمة المساء). يذهب فريجة إلى التفرقة بين ما يسميه (بيداغوجيا) وبين ما هو (سنن)، وتفسر محاولته على أنها "قضية عن الكيفية التي ينتج بها النظام الإحالي (الماصدقي) نظرية المعنى... فما يسميه (بيداغوجيا) يقابل في تعبيرنا مصطلح (الماصدق)، وفي أحيان يترجم بـ(الإحالة)، وأما مصطلح (سنن)، فهو يترجم عادة إلى (مغزى). وما يقابل عندنا مصطلح (معنى)، هو عند فريجة عبارة عن سؤال: كيف نحصل من البداغوجيا (الماصدق)، على السنن (المغزى)"[٦]. وقد سبق عزمي إسلام أن أوضح ما قاله فريجة أن اللفظ من ناحية المعنى، إذا كان مفرداً، فله فحوى، وإن كان كلياً فله (مفهوم). ومن ناحية الدلالة أو الإشارة، إن كان مفرداً فله مرجع، وإن كان كلياً فله ماصدق، وقد رسم جدولاً يوضّح ذلك.[٧]

	الرمز المفرد	الرمز الكلي
من حيث المعنى meaning	له فحوى sense	له مفهوم connotation
من حيث الإشارة أو الدلالة	له مرجع referent	له ماصدق denotation

ويمكن تعديل الجدول بأن يكون الحقل الأول (من حيث الدلالة) لأن المعنى باعتبار ما سيكون، والثاني (من حيث المدلول والإحالة). وهذا ما قرره الاصوليون في نظرية المعرفة العربية – كما سيأتي – ويطابق وصف (فريجة).

يبدو العجز المفهومي هو بداية تكوين الجدولة الدلالية، أي دخولها إلى الحقل العلمي التصنيفي، ليكون لدينا ما يسمى اليوم بعلم الدلالة التجريبي. فما هو ثابت حصولنا على ماصدق، ومن هذا الحصول الأولي يمكن أن يظهر المفهوم تجريبياً. لذا صار تفريق (فريجة) مادة معجمية لوصف الإحالة. جاء في معجم اللسانيات لجامعة Utrecht الهولندية المنشور على شبكة المعلومات الدولية، في مادة (reference) النص الآتي:

Frege introduced the distinction between sense (German: Sinn) and reference (German: Bedeutung). The reference of an expression is the entity or set of entities which that expression denotes. The sense of an expression relates to properties of the (mental) representation of the expression. For example, the reference of *the president of the USA* is George Bush in December ١٩٩٢, but Bill Clinton in February ١٩٩٣. The sense of the phrase, however, is the same in both cases. Reference and sense are often equated with extension and intension.[٨]

وكأن الإحالة هي المدخل التجريبي الوحيد للمفهوم أو المعنى أو الدلالة. أما هو أي المفهوم أو لوازمه، فلا ينهض بذاته، ولا يحقق ثابتاً معرفياً محدداً ومؤثراً في اللغة.

وأما في الدرس العربي، فقد ظهر التدليل عند العرب في ثلاث مدارس، الأولى مثلتها مدرسة فلسفة الأدب عند الجاحظ، والثانية ظهرت في نظرية الوضع عند الأصوليين، والثالثة في البنية اللغوية عند النحاة العرب. وهذا الترتيب العكسي جاء من حيث الشهرة والانتشار والمنهجية المتبعة في كل مدرسة، وإلا فإن الأقدم من الناحية التاريخية، هي النحوية، تليها البلاغية، وأخيراً الأصولية.

يرى الجاحظ أن التدليل منقسم على نمطين رئيسين، (الدلالة) و (الإشارة) وجمعهما بقوله: "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى"[٩]. وفي موضع آخر خص الدلالة دون الإشارة، ووقف عند النظام المعرفي في التدليل عند الإنسان، وما اختص به عن سائر الموجودات، فاختلفت طريقة التدليل بينهما "من جهة أنّ أحدهما دليل لا يستدِلُّ، والآخر دليل يستدل. فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدل، فشارك كل حيوان سوى الإنسان، جميع الجماد في الدلالة، وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مستدلاً، ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسمّوا ذلك بياناً"[١٠].

حُصرت نظرية الجاحظ خطأً باللفظ والمعنى، والدال والمدلول، فمن جهة التدليل جُعلت في "أن الجاحظ قد حسم المسألة لصالح الإنسان بوصفه ينبوعاً للمعرفة، وإنه لمن أجل ذلك استخدم اللغة أداة، فناب بها عن نفسه ليعقلها، وناب بها عن العالم ليدركه ... وعندئذٍ تغدو ... سبباً يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال"[١١]. وهذه القراءة لمتن الجاحظ، تبيّن أن الأول الدال، وهو السبب الذي يدل به، والثاني المدلول

وهو وجوه ما نتج له الاستدلال. ولكن التدقيق في هذه النظرية، لا يفضي إلى علاقة بين دال ومدلول، فالسبب والنتيجة هما من عمليات الاختزال التي تشهدها المعاني. فتبدو المعاني في منزلة عامة، تخضع لعمليات اختزال. والترويج لعمليات الاختزال يمر بمرحلة السبب والنتيجة، ومنها تظهر عناصر التدليل، ولا تتجرد عنها، لأن الجاحظ لا يرى فائدة من الاختزالات إذا تمت في عزلة عن المعاني. فعمليات الاختزال هي من تجرد وسائل التدليل وصولاً إلى الكشف والظهور للمعنى، أي هذا الظهور الجديد المار بعمليات التدليل.

ما يُفهم من الجاحظ أن التدليل الذي هو من ضرورات المعاني، معني بإظهار هذه المعاني، وقاعدته منقسمة على (وضوح الدلالة) و (صواب الإشارة) فأما الأولى فعملها لا يخرج عن المعنى الكلي المشترك، أي في الجانب المفهومي من دلالة التعبيرات على المعنى. وأما الثانية فهي التي تقع في الماصدقات، أي في جانب المدلول من هذه التركيبات. فالمعنى الكلي تتعايش معه طبقات المجتمع من دون تمييز، ويأخذ المفهوم من وجهة نظر الجاحظ، جانب الحياد المطبق، حتى يتم اختزاله، وترشيده، وإنزاله من مستواه العلوي، إلى الواقع المليء بالتفاوتات، وبذلك حاجته إلى (صواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل).

ومما أُشكل على الجاحظ، أن "وضوح الدلالة فُهم بمعنى قرع الحجة"[١٢] ومثاله قوله تعالى (قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يس: ٧٨-٧٩. "فهذه دلالة واضحة على أن الله قادر على إعادة الخلق، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها"[١٣]، وأن "الإشارة هي أن يكون اللفظ القليل مشاراً به إلى معانٍ كثيرة، بإيماء إليها، ولمحة تدل عليها، وذلك كقوله تعالى (إذ يغشى السدرة ما يغشى) النجم: ١٦، وقول الناس: لو رأيت علياً بين الصفين، فيه حذف وإشارة إلى معانٍ كثيرة"[١٤]. فالعسكري خلافاً للجاحظ لا يرى بداية التجربة المفهومية عامة ومشتركة وكلية غير مخصصة. ولكن هذا الفهم لا يراعي أن الجاحظ أراد بوضوح الدلالة ما استقر بالمفهوم، وبصواب الإشارة ما لم يستقر بالاستعمال على مفهوم معيّن، وبات بالمشار إليه حاجة إلى أن يقف عند ماصدق معين، وهو داخل في علاقات المدلول والإحالة، والقرائن وغيرها. فعند الجاحظ لا يمكن أن تكون معايير التدليل عيالاً على آلة البيان أو البلاغة.

وأما النظرية الثانية فولدت في موضوعات (الأصول)، وفيها بدت المعاني معلّقة من دوالها اللفظية، وهي إلى المدلول أميل منها إلى الدلالة، وفي هذه النظرية تراجع (المفهوم) إلى مستواه الأدنى، وبدت الدلالة مقرونة بقدرة التوثيق على ماصدقات. وتحقيق العلاقة بين اللفظ والمعنى، وتصدّر الدال عمليات التدليل الذهني. وقد اتفق الأصوليون على هذا النمط، إلا من ثلة قليلة رأت بالوضع اللغوي أنه ولد في رحم الدلالة التصديقية، ولا يمكن قرنه بالشروط التصورية البسيطة، وسيأتي الحديث عنها في العينة الشعرية.

وأما النظرية الثالثة فجاءت على يد النحاة التي رجّحت فحوى التراكيب، ومعناها الكلي كونها البادرة الدلالية الأولى، للوصول إلى المدلول حيث يشيع استعمال الدال النحوي. كان سيبويه مؤسس هذه الطريقة، ونظرته كانت ثاقبة في مسألة قلب الحدث النحوي من البنية إلى الوظيفة، على عكس ما حصل من التصورات التي تذهب إلى بداية الوظيفة على البنية.

يقول سيبويه: واعلم أن الفعل الذي لا يتعدى الفاعل يتعدى إلى اسم الحدثان الذي أخذ منه؛ لأنه إنما يذكر ليدل على الحدث. ألا ترى أن قولك قد ذهب بمنزلة قولك قد كان منه ذهاب. وإذا قلت ضرب عبد الله لم يستبن أن المفعول زيدٌ أو عمرو، ولا يدل على صنف كما أن ذهب قد دل على صنف، وهو الذهاب"[١٥].

فالفعل اللازم بمصطلح اليوم، حمل معنى كلياً، وصنفاً عاماً بتوقفه عند الفاعل، بينما حصل العكس، حين جُعِل المتعدي دليلاً على المفعول. فصار الدال النحوي، تناط به وظيفة إخراج التركيبات إلى المفاعيل، بما يُصادق عليها في الواقع. وقد تفرّد سيبويه بهذه النظرية، وجعل المعنى أو المفهوم من تكوينات البنية النحوية في مستواها التركيبي الأول. ولكنّ هذه النظرية سجّلت خطأً لابن جني؛ يقول ابن جني في باب الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية: اعلم أن كل واحد من هذه الدلائل معتد مراعى ... فأقواهن الدلالة اللفظية ثم تليها الصناعية ثم تليها المعنوية .... ألا ترى إلى قام ودلالة لفظه على مصدره، ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله .... وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل أنها، وإن لم تكن لفظاً فإنها صورة يحملها اللفظ"[١٦].

فالفرق بين العالمين، أن ابن جني تأثر بالترتيب المنطقي، فالدلالات عنده (لفظية، صناعية، معنوية)، وهو ترتيب ذكره بحسب القوة، ففي لفظ الفعل دلالة على مصدره، ولم يذكر الحدث، كما فعل سيبويه؛ فجرّد الدلالة النحوية ابتداءً من اللفظ، وما ينتج منها من الوظائف، فكانت الفاعلية هي الأضعف من بين هذه الوظائف لأنها غير مرتبطة بلفظ الفعل، والزمان أقوى منها لأنها وإن لم تكن لفظاً إلا أنها صورة يحملها اللفظ، والأقوى هي المصدرية، لتطابقها مع اللفظ. وهذا الترتيب يوافق ما جاء به جمهور الاصوليين في دلالة (التطابق والتضمن والالتزام)، وهي في المدلول، وتداخلها ضعيف مع الدلالة والفحوى والمفهوم. وبذا صار واضحاً أن ابن جني يقلب معادلة سيبويه النحوية رأساً على عقب.

وخلاصة رأي سيبويه ومن تابعه من الأصوليين على قلتهم، يمكن تلخيصها بالقاعدة الآتية: ينفصل الدليل عن معناه الكلي، في لحظة انفصاله عن البنية، ولا ينفصل نحوياً إلا إذا تحولت مكونات البنية إلى الوظيفة، أو نُظر إليها من محتواها الوظيفي، ومثال ذلك ما فعله ابن جني.

ثانياً: المجال التطبيقي للرؤية النحوية العربية في القصيدة:

بحسب قاعدة المعنى عند سيبويه ومن تابعه، تكون بنية جملة الفعل اللازم هي المؤسسة للمعاني الدلالية، وهي قياسية في وضع البنية بإزاء المعنى الكلي (المفهومي)، من دون خضوعها إلى الوظيفة الدلالية. ولو تم قياس البنية التركيبية بمظاهر التنميط، سنجد أن بداية القصيدة عند السياب، قد ظهرت ببنية التعدي، وليس اللزوم. ومع ذلك، فإن السيّاب يمارس عليها عمليات اختزال، تعيدها إلى المستوى الافتراضي الأول، بما ينسجم مع وحدة الصورة الكلية الناتجة من وحدة الفعل والفاعل في جملة اللازم. يقول السياب:

الكوكب الوسنان يطفيء ناره خلف التلال

والجدول الهدّار يسبره الظلام

إلا وميضاً لا يزال

يطفو ويرسب مثل عينٍ لا تنام

ألقى به النجم البعيد

يا قلب مالك لست تهدأ سعة؟ ماذا تريد؟

النجم غاب وسوف يشرق من جديد بعد حين

والجدول الهدار هينم ثم نام

أما الغرام دع التشوّق يا فؤادي والحنين.[١٧]

إن الصورة الافتراضية الأولى للقصيدة هي (غابت الشمس ، وسوف تشرق من جديد)، وبنيتها النحوية تنتهي إلى صورة كلية في الفعل اللازم. ما جرى تعديله في النص هو تحويل البنية إلى التعدي، وقد صاحب

ذلك إدخال مفهوم الشمس في مجموعة من المترادفات، فظهر (الكوكب الوسنان) و (النجم البعيد) و (النجم الغائب).

بدت النظريات الدلالية التي تعرّضت لمثل هذه الظاهرة مضطربة اضطراباً شديداً[١٨]، فالمثال الذي ضربه فريجة عن (نجمة الصباح) و (نجمة المساء) يضرب له السيّاب مثلاً تطبيقياً، فالمفهوم متعدد، على الرغم من وحدة الماصدق وهو (الشمس). وما استقر في النحو العربي يعدّ أكثر رصانة من الفكر التجريبي الدلالي الغربي. فعملية تحويل بنية الجملة من اللازم إلى المتعدي، هي من يكمن وراء التغيير المفهومي في الماصدق في قصيدة السيّاب. لنراقب ما يجري:

حوّل السياب قاعدة المفهوم الأساسية (تغيب الشمس خلف التلال) إلى (تطفيء الشمس نارها خلف التلال). وهو بذلك حوّل النظر من الشمس، إلى التركيز على اللهب الناتج منها، ومنه دخل مفهوم الشمس في علاقة استعارية، في أثناء تحوله إلى المفعولية، في كل من صفة الكوكب ، والوسنان. أي بدلاً من أن تكون فاعلاً لمفهوم واحد، هو الباعث للهب، صار مفعولاً بمفاهيم متعددة. إن الضابط القياسي في هذه الظاهرة، هو العودة إلى البنية التركيبية الأم، وهي جملة الفعل اللازم، حيث غياب الشمس يعني انقطاعها، ولا يعني بالتحديد انقطاع لهبها، فهو من لوازم غيابها، والتأكيد على هذه اللوازم في علاقات المفعولية، هو من يؤسس لهذه العلاقات الجديدة.

يقول السياب:

أأظل أذكرها وتنساني؟

وأبيت في شبه احتضار وهي تنعم بالرقاد؟

شعّت عيون حبيبها الثاني

في ناظريها المبلسين على الرؤى، أما فؤادي

فيظل يهمس في ضلوعي.

باسم التي خانت هواي يظل يهمس في خشوع

إني سأغفو بعد حين سوف أحلم في البحار:

هاتيك أضواءَ المرافيء وهي تلمع من بعيد

تلك المرافق في انتظار

تتحرق الاضواء فيها مثل أصداء تبيد.

في هذا المقطع من القصيدة تتأكد البنية المفهومية، ويخرج الحدث من كونه وظيفة إلى ما يكشف عن مستواه البنيوي، فما عدا قوله (أظل أذكرها وتنساني) وقوله (باسم التي خانت هواي) و (هاتيك أضواءَ المرافيء) تأتي البنية المفهومية في (أبيتُ محتضراً) و (تنعم راقدةً) وهي بنية اللازم التي يتصدّرها فاعل متلبّس بالحدث كلياً، غير قابل للتجزئة في فعله، بعد أن يقف عنده الفعل ولا يتعداه. هذه الوقفة تعبّر عن حدث كلي، غير محتاج في البرهنة على وجوده، إلى متعلقات خارجية.

يقف بعض الأصوليين مع الفكر النحوي، ويتفق الاثنان على أن أقرب ما يحصر الجملة في مستواها الوظيفي، ويقلل من حضورها الدلالي، هو خضوعها للتصور البسيط. ولذلك جرى التمييز عند من تابع سيبويه من الأصوليين بين الدلالة التصديقية و الدلالة التصورية. وقد جاءت الإشارة الأولى لهذا التمييز في شرح كتاب التنبيهات للشيخ نصير الدين الطوسي، فيقول: "إن دلالة اللفظ لما كانت وضعية كانت متعلقة بإرادة المتلفظ الجارية على قانون الوضع، فما يُتلفّظ به، ويراد به معنى ما، ويفهم منه ذلك المعنى، يقال له: إنه دال على ذلك المعنى. وما سوى ذلك المعنى مما لا تتعلق به إرادة المتلفظ، وإن كان ذلك اللفظ، أو جزء منه ..... يصلح لأن يدل به عليه، فلا يقال له: إنه دال عليه"[١٩]. وفي موضع آخر يقول: "قال الشيخ (المفرد هو الذي لا يراد بالجزء منه دلالة أصلاً) زاد في الرسم القديم ذكر (الإرادة) تنبيهاً على أن المرجع في دلالة اللفظ هو إرادة المتلفظ"[٢٠].

وما يُفهم من كلام الشيخ الطوسي، أن التصور لا تحمل عليه علاقة دلالية. وأن النقلة إلى موضع المفهوم، لا تأتي إلا مع الإرادة، وبها تتم الدلالة في الألفاظ. وقد بُني على كلام الشيخ الطوسي، المائز بين الدلالة التصورية، والدلالة التصديقية. فمن المعاصرين، يذكر الشيخ المظفر إن ما عليه الجمهور "أن الدلالة غير تابعة للإرادة بل تابعة لعلم السامع بالوضع، ويُرد على ذلك ... أن الدلالة تابعة للإرادة، وأول من تنبّه لذلك فيما نعلم الشيخ نصير الدين الطوسي – أعلى الله مقامه – لأن الدلالة في الحقيقة منحصرة في الدلالة التصديقية، والدلالة التصورية التي يسمونها دلالة ليست بدلالة، وإن سميت كذلك، فإنه من باب التشبيه والتجوز، لأن التصورية في الحقيقة هي من باب تداعي المعاني الذي يحصل بأدنى مناسبة، فتقسيم الدلالة إلى

تصديقية وتصورية تقسيم الشيء إلى نفسه، وإلى غيره"[٢١]. "فالظهور التصديقي ينشأ من مجموع الكلام، وهو عبارة عن دلالة جملة الكلام على ما يتضمنه من المعنى"[٢٢].

تخرج الدلالة هنا إلى المعنى الكلي، أي إلى دلالة الجملة؛ "فقد تكون دلالة الجملة مطابقة لدلالة المفردات، وقد تكون مغايرة لها كما إذا احتف الكلام بقرينة توجب صرف مفاد جملة الكلام عما يقتضيه مفاد المفردات"[٢٣]. وهذه الطريقة في البحث الدلالي المفارقة لجمهور النحاة والأصوليين، كانت مما اتفق عليها بحث القلة من الأصوليين مع سيبويه، ونظريته النحوية الأولى في المعنى. والفائدة التي حصلت عليها الجملة النحوية، أنه تم بهذه الدلالة التفريق بين مدلول الجملة، أي إحالتها الصادقة والكاذبة، وبين دلالة الجملة التي جعلت من البنية المفهومية، بنية كلية للوصول إلى المقاصد. "فالمتصف بالصدق والكذب إنما هو مدلول الجملة لا نفسها"[٢٤]، وأما دلالتها فهي ملتزمة بـ "قصد الحكاية عن الواقع نفياً وإثباتاً"[٢٥]

ارتكز بحث الدلالة التصديقية على المعاني الإيجادية، وتركوا التصور لما أسموه بالمعاني الإخطارية التي هي أقرب إلى فكرة الحدس اللغوي في البحوث المعاصرة. يقول السيد الخوئي: "إن المعاني الحرفية بأجمعها إيجادية، وإلا لكانت إخطارية، ولا مقابلة بين الإيجادية والإخطارية، حتى يكون النفي نفي الثانية مستلزماً لإثبات الأولى"[٢٦]. وأما عن دلالة الجملة، فإنها "توجب الانتقال إلى ثبوت المحمول للموضوع بنحو التصور، ولكنه لا يستفاد من الهيئة، فإن الجملة تصديقية لا تصورية"[٢٧]. وتوضيح ذلك أن جملة: "زيد أفضل من عمرو، أو زيد قائم، فيها جزء لا يقبل التكذيب هو إيجاد المتكلم التفضيل في الأولى، والإخبار في الثانية، وفيها جزء يقبل التكذيب هو ثبوت الأفضلية، أو ثبوت القيام خارجاً"[٢٨]. وأول من أصّل نحوياً لهذا الفارق الدقيق، هو (الرضي) في شرح الكافية، حيث يُظهر الفارق الإيجادي التصديقي المعبر عن الإرادة في الدلالة واضحاً، ومفارقاً للمدلول التصوري الحدسي. فإذا "قلت : زيدٌ قائمٌ وهو خبر بلا شك، لا يدخله التصديق والتكذيب من حيث الإخبار، إذ لا يقال إنك أخبرت أو لم تخبر، لأنك أوجدت بهذا اللفظ : الإخبار، بل لا يدخلانه من حيث القيام فيقال: إن القيام حاصل أو ليس بحاصل"[٢٩].

وابتداءً من الرضي أصبحت دلالة الجملة محصورة بإيجاد أمر نفساني، لا علاقة له بالصدق والكذب، وهو قصد الحكاية، والإخبار عن ثبوت النسبة في الجملة الخبرية، وأمر نفساني آخر غير قصد الحكاية في الجملة الإنشائية كالتمني والترجي[٣٠]. وهذه الدلالة المنفصلة عن لوازمها، تضع بنية الجملة في كلية مفهومية، غير مفتقرة إلى إحالة ذهنية إخطارية متعلقة بمدلول أو مرجع خارجي. فالقصدية النحوية هنا ارتكزت على دلالة

الجملة بمبدأ الحصول على معاني كلية. ومثل هذه القصدية خالفت القصدية التي شاعت، وتبنّت الإحالة والمرجع الخارجي، واكتساب قيمة الصدق شرطاً ضرورياً لوجودها.

ومثل هذه النظرية النحوية الأصولية، تضع حلاً مناسباً لأنماط من التدليل، من نحو قول السياب

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب

تتجاوب الأصداء فيها مثل أيام الخريف

جوفاء في بطء تذوب

واستيقظ الموتى هناك على التلال على التلال

الريح تعول في الحقول وينصتون إلى الحفيف

يتطلعون إلى الهلال

في آخر الليل الثقيل، ويرجعون إلى القبور

يتساءلون متى النشور

والآن تقرع في المدينة ساعة البرج الوحيد

لكني في القرية الظلماء في الغاب البعيد

إن البحث عن مصاديق لهذه المفاهيم، يكاد يكون أمراً مستحيلاً، وباستحالة ذلك تغلق أنماط التدليل، ويتعطل التفكير بالمستوى الدلالي للقصيدة، هذا إذا نظرنا إليها من المدلول أو ما موجود بالعرض أو بالمجاز، وهما المخرجان فيه إلى تحقيق الصدق والكذب معيارين دلاليين [٣١]. وأما إذا فُهم ما في القصيدة على نظرية سيبويه والطوسي، ومن تابعه، فإن مخرج الدلالة يتجاوز تصادم المفاهيم من نحو قول الشاعر: (القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب)، فالتصادم حاصل في الإحالة بين أن تكون القرية ظلماء، لأنها خاوية المعابر، أو أن تكون خاوية المعابر فأصبحت ظلماء. فبمجرد أن يكون النمط الدلالي بالمستوى التصديقي، سيمنع تصادم الطرفين، لأن وجود القرية الظلماء قائم على قصد الحكاية، لا عن إثبات وجودها، أي إن هذا القصد يتحدث عن الإخبار، وليس عن ثبوت النسبة في طرفي المعادلة، سواء في الظلمة، أو في الخواء.

إن قصد الحكاية قائم على المتكلم، والمتلقي فيه محدد بعامل عام وافتراضي، ولذلك تنفصل الدلالة القصدية عن التحقق الجزئي في الماصدقات. وفي نص السياب تظهر فاعلية المتكلم على أولويات المكان، في تحديد المقاصد، وفصل الدلالة عن متعلقات المدلول (الصدق، والكذب). وقد بدأت القصيدة من رؤية الشاعر، من واقع ما يراه الشاعر، فاختفت وارء المعادلة الدلالية القصدية آثار المدلول المتمثلة بإني أرى، فاختزل هذا المدخل تماماً، ولم يظهر الشاعر إلا في نهاية المقطع (ولكني في القرية الظلماء) تأكيداً على الدلالة القصدية للمتكلم.

وأما عن المكان، فلا يدخل المنظر في جزئيات المشهد، فتختزل بنية التعدي في رؤية القرية، تبعاً لمستوى الدلالة القصدية، وتتم رؤية القرية بأفعال لازمة بدلاً من المتعدية: وهي على التوالي: (تظلم القرية ، وتخوي المعابر، وتتجاوب الأصداء، واستيقظ الموتى، وتعول الريح، وينصت الموتى، ويتطلعون إلى الهلال، ويرجعون إلى القبور، ويتساءلون متى النشور، وتقرع ساعة البرج الوحيد).

إن ظاهرة استبطان المتكلم في البنية الخبرية، تعادل قصدية الجملة، أي انفصالها عن مدلول متعلق بقيمة الصدق. وقد صار واضحاً، أن هذه القاعدة قررها سيبويه من الفارق النوعي بين اللزوم والتعدي، وعند الأصوليين ممن أظهروا إرادة المتكلم مرجعاً لفصل البنية عنه. ومن بين ما تجسد من هذه الرؤية في نص السياب، أنه ابتعد في هذا المقطع عن دمج ذاته في البنية، بابتعاده عن الأفعال الحسية المباشرة، في الرؤية والسمع والاحساس، وهي كلها من مصادر توحيد الذات مع البنية، وتعطيل القصدية القائمة على ما يحرزه الفاعل من المستوى المفهومي للحدث في الجملة. فكان اختيار الشاعر قد وقع على المستوى الافتراضي للذات، وهو بذلك يعرّفها من مستوى كلي، لا من واقع خارجي آني.

وفي المقطع الرابع تظهر ذات الشاعر فيقول:

دعها تحب سواي تقضي في ذراعيها النهار

وتراه في الأحلام يعبس أو يحدّث عن هواه

فغداً سيهوي ساعداه

مثل الجليد على خطوط باهتات في إطار

وعلى الرفوف الشاحبات رسائل

عادت تلف على نسيج العنكبوت بها الوعود

والريح تهمس لن يعود

ويلوّن المرآة ظل من سراج ذابل

وحياله امرأة تحدّق في كتاب

بالٍ وتبسم في اكتئاب.

ويبدو أن الأفعال الحسية تظهر؛ لتحدد النص بمواضع التجسيد الذي يعبر من المفهوم إلى الماصدق. وهذه القفزة النوعية في النص، هدفها الإحاطة الخارجية بما وراء الفاعل أو الذات المتكلمة؛ أي الانتقال من القيمة القصدية للنص، بهدف الوصول إلى المتعينات الخارجية. وفي هذا الموضع، يتم تعطيل القيمة القصدية في النص، وفصل الفاعل عن البنية، والتركيز على المفعول، مع ملاحظة أن ظهور المتكلم، على الطريقة الحسية التي يظهر بها في جمل متعدّية، عند السيّاب، سيعني غياب الدلالة القصدية، وحلول الدلالة التصورية محلها.

إن هذا الانعطاف بالنص، هو انعطاف آني، لا يؤلف تأثيراً على اتجاه النص القصدي، فالجمل التي ظهرت، وفسرّت هذا الانعطاف، هي أربع جمل، جاءت على النحو الآتي: (دعها تحب سواي....) و (تراه في الأحلام ...أو يحدّث عن هواه) و (عادت تلف على نسيج العنكبوت الوعود) و (يلوّن المرآة ظل من سراج ذابل). وهي كلها جمل متعدّية تتجاوز الفاعل، لتستقر على الشيء الخارجي، ومن طبيعة هذه التحولات أنها تحدث انقساماً في المدلول، لأنها لا تحقق استقراراً دلالياً على المفعول.

الخاتمة والنتائج

تبين من البحث أن ما يفصل علم الدلالة عن علم العلامة، هو الكيفية التي تعامل بها كل من العلمين مع المفاهيم. فظهر الفارق النوعي بينهما لدى العرب في كل من نظرية النحو، ونظرية الأدب، ونظرية الأصول. وقد أحرز العرب مراتب متقدمة في مراقبة الكيفية التي تخلق فيها المفاهيم، على صعيد الكلام، أو على مستوى النصوص الكبرى. وبدت عمليات التدليل واحدة من أبرز المعالم المعرفية في الفكر اللساني العربي.

وأما من ناحية قصيدة السيّاب، فقد كشف البحث أن الشعر القائم على المفارقات الاستعارية الحسية، وبمقدار ما ينفرد به من هذه النواحي الجمالية، فهو كذلك يؤسس لما يعرف اليوم بخلق المفاهيم، فبدت قصيدة السيّاب تركز، في مضامينها الاستعارية والمجازية، على مظاهر التدليل، وكأن غايتها وضع سبل الارتقاء بالدلالة إلى مستوى خلق المفاهيم. وقد تأسس ذلك على مبدأ أن المفاهيم عالم قائم بذاته، لا يتباين مع تباين السياقات الدلالية، وأن تحويل علامة ما إلى مفهوم، هو الطريق الأقرب إلى خلق المفاهيم، إن لم يكن هو الطريق الوحيد. وهذه النتيجة طابقت ما وصل إليه الفكر العربي، حين أفرد للمفهوم مكانة خاصة تختلف عن مكانة المدلول، كما توضّح في النظريات العربية الثلاث.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

- أجود التقريرات : تقرير بحث النائيني للسيد الخوئي، ط٢، منشورات مصطفوي، مطبعة الغدير، قم، ١٣٦٨ ش
- الإشارات والتنبيهات: لأبي علي بن سينا، شرح: نصير الدين الطوسي، تحـ : د. سليمان دنيا، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣
- أصول الفقه : الشيخ محمد رضا المظفر ، ط٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠-١٩٩٠
- البحث النحوي عند الأصوليين: مصطفى جمال الدين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠
- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨-١٩٩٨
- التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، ط٢،الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٦
- الحيوان: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٤-١٩٦٥
- الخصائص : ابن جني ، تح: محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت
- ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، ١٩٧١
- السيمياء وفلسفة اللغة ، امبرتو إيكو ، ترجمة د. أحمد الصمعي، ط١ مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠٠٥
- شرح الرضي على الكافية: رضي الدين الاسترابادي، ط٢، طبعة جديدة مصححة ومذيّلة، عمل يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ١٩٩٦
- الصناعتين : الكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، ١٩٥٢

• الكتاب : سيبويه، تح: محمد عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٣
• اللسانيات والدلالة (الكلمة) : منذر عيّاشي، ط١، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ١٩٩٦
• محاضرات في أصول الفقه، محمد إسحاق الفيّاض، النجف الأشرف،
• مفهوم المعنى، دراسة تحليلية، عزمي إسلام: حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٩٨٥

المصادر الاجنبية

• Dr Owen Conlan and Dr Alexander O'Connor, From Concepts to Knowledge – A Brief Introduction to Ontology,the university of Dublin, Trinity college, Dublin, http://dho.ie/sites/default/files/٦٪٢٥٢٠Publishing
• Oxford Advanced Dictionry, ٨ TH Edition, oxford university press.
• Irene Heim & Angelika Kratzer, Semantics in generative Grammar, Blackwell, USA & UK, third edition, ٢٠٠٠
• Stanford encyclopedia of philosophy, Peirce's theory of signs, http://plato.stanford.edu/entries/peirce-semiotics.

الهوامش

---

[١] جاء في تعريف بيرس للعلامة: بأنها أي شيء يمكن تحديده من طرف شيء آخر، على أن يسمى المحدِّد مؤوّلاً. Peirce's theory of signs, Stanford encyclopedia of philosophy, http://plato.stanford.edu/entries/peirce-/semiotics.

[٢] التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، ط٢،الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٦: ١٨.

[٣] السيمياء وفلسفة اللغة ، امبرتو إيكو ، ترجمة د. أحمد الصمعي، ط١ مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠٠٥. ص٣٨.

[٤] Dr Owen Conlan and Dr Alexander O'Connor, **From Concepts to Knowledge – A Brief Introduction to Ontology**,the university of Dublin, Trinity college, Dublin, http://dho.ie/sites/default/files/٦٪٢٥٢٠Publishing.

[٥] Oxford Advanced Dictionry, ٨ TH Edition, oxford university press.

[٦] Irene Heim & Angelika Kratzer, Semantics in generative Grammar, Blackwell, USA & UK, third edition, ٢٠٠٠ p.٢١

[٧] مفهوم المعنى، دراسة تحليلية، عزمي إسلام: حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٩٨٥. ٥١.

[٨] معجم اللسانيات لجامعة**Utrecht** الهولندية، على الرابط: http://www٢.let.uu.nl/UiL-OTS/Lexicon/toc.pl

[٩] البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨-١٩٩٨. ١/ ٧٥ .

[١٠] الحيوان: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٤-١٩٦٥. ١/ ٣٣.

[١١] اللسانيات والدلالة (الكلمة) : منذر عيّاشي، ط١، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ١٩٩٦. ٤٠-٤١.

[١٢] الصناعتين : الكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، ١٩٥٢. ١٨.

[١٣] نفسه: ١٨.

[١٤] نفسه : ٣٤٨.

[١٥] الكتاب : سيبويه، تح: محمد عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٣. ١/ ٣٤-٣٥.

[١٦] الخصائص : ابن جني ، تح: محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ٣/ ٩٨.

[١٧] ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، ١٩٧١. ٩٣.

[١٨] ينظر في ذلك الدراسة التي قدمها عزمي إسلام، حول موقف النظريات من قضية الترادف في : مفهوم المعنى: النظرية الإشارية الإشارية ، ٤٨ وما بعدها.

[١٩] الإشارات والتنبيهات: لأبي علي بن سينا، شرح: نصير الدين الطوسي، تحـ : د. سليمان دنيا، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣. ١٤٤.

[٢٠] نفسه: ١٤٥.

[٢١] أصول الفقه : الشيخ محمد رضا المظفر ، ط٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠-١٩٩٠. ١/١٨.

[٢٢] نفسه، ٢/١٢٦.

[٢٣] نفسه: ٢/١٢٦.

[٢٤] محاضرات في أصول الفقه، محمد إسحاق الفيّاض، النجف الأشرف، ٩٣.

[25] نفسه، ٩٢.

[26] أجود التقريرات : تقرير بحث النائيني للسيد الخوئي، ط٢، منشورات مصطفوي، مطبعة الغدير، قم، ١٣٦٨ ش: ١/٢٠.

[27] نفسه: ١/٢٣.

[28] البحث النحوي عند الأصوليين: مصطفى جمال الدين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠. ٢٦٨-٢٦٩.

[29] شرح الرضي على الكافية: رضي الدين الاسترابادي، ط٢، طبعة جديدة مصححة ومذيّلة، عمل يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ١٩٩٦. ٤/٢٣٨.

[30] ينظر : البحث النحوي عند الأصوليين، ٢٧٢.

[31] ينظر: محاضرات في أصول الفقه، ٩٣.